الفصل السابع

بين مزايا الكتابة العربية وعيوبها

ليس للكتابة العربية ضريب فى جمال حروفها فى الأفراد والتركيب ، وفى الكتابة تجلت عبقرية رجل الفن المسلم، وقد ساعفته فى ميدانها يد قوية مَرِنة مطواعة ،وأمده بشتى أساليب الافتنان والابتكار ذهن خصب لا حد لافتنانه وابتكاره .

وقد ساعده على ذلك ما فى طبيعة الكتابة العربية من مرونة ومطاوعة ، وما فيها من قابلية المد والمط والاستمداد والرجع ، والاستدارات التى تكسب الكتابة حياة ، وتزيل عنها الصفة الهندسية وتمنحها جمالا وبهجة .

وتتوفر فى الكتابة العربية مزية قل أن توجد فى خطوط الأمم الأخرى تلك هى إمكان زخرفتها على وجوه لا تعد ولا تحصى ، ولهذا فقد استطاع الكاتبون المجردون والمزخرفون أن يستخرجوا منها أنماطاً زخرفية غاية فى الإبداع وحسن الاستخلاص ، وقد بلغ المزخرف فى هذا السبيل غاية استعصى فيها أن نتبين العنصر الكتابى الأصلى

وسط تلك الأفانين الزخرفية التى ابتدعها ذهنه الخلاق . وكان ذلك فى الكتابات الكوفية والكتابات اللينة على حد سواء . وقد ساعد ما فى طبيعة الحروف العربية من انتصابات وانبساطات على إمكان التباين فى الأوضاع ، كما ساعد ما فيها من قابلية للاستمداد والانثناء على امكان شغل الفراغ المتخلف بين الحروف المنتصبة التى تكون فى حد ذاتها نوعاً من التوازى الزخرفى .

ولم نر للمتفنن العربى نظيراً فى مقدرته على التوزيع والتجميع ، فهو تارة يجعل حروفه مجتمعة وأخرى يباعد بينها بالاستمداد ، وهو ، فى هذا الجمع وذاك التباعد ، قوى الإحساس بأنه مرض ذوق الجماهير ، ساعدته طبيعة الاستمداد هذه على التفريق بين الحروف ، فكانت فى يده مطية ذلولا يركبها عند اللزوم ويعاب على بعض المزخرفين الكتابيين أنهم قد استأثروا بفنهم لدرجة تركونا معها حيرى مشدوهين أمام ما خلفوه لنا من كتابات طغت عليها الزخارف حتى استعصت قراءتها على الكثيرين ، ومن ثم مكنوا لنفر من النقاد من أن يعيبوا على الكتابة العربية إسرافها فى الزخرف إلى حد التعقيد. والمزخرف العربى يحب بسليقته الاسراف فى الزخرفة لأنه يكره أن يرى مساحة عاطلة .

ومن محاسن الحروف العربية شدة حيويتها الناشئة من مطاوعتها واستدارتها ، وانبناؤها جميعاً على أصل هندسى ثابت وقاعدة رياضية معروفة، فأصل الحروف العربية «الألف» التى هى خط مستقيم جعلوه قطراً لدائرة، أما بقية الحروف فهى أجزاء من الدائرة المحيطة بهذا القطر منسوبة إليه، لو أعيدت الحروف إلى التسطيح وأزيل تقوسها لكانت كلها من الألف بنسبة معينة ثابتة : فالباء وأخواتها مثلا ، كل واحدة منها يجب أن يكون تسطيحها إذا أضيف إليه سنها وتشعيرها مساوياً لطول الألف — والجيم وأخواتها مقدار مدتها فى الابتداء لا يقصر عن نصف طول الألف، وكذلك الدال وأختها كل واحدة منها يجب أن يكون مقدارها إذا أزيل ما فيها من انثناء وأعيدت إلى التسطيح غير متجاوز طول الألف ولا مقصر دونه ، والصاد وأختها مقدار عرض رأس كل منهما فى مداها مثل مقدار نصف الألف ، وفتحة البياض فيها مقدار ثمن الألف أو سدسه ، وتعريقها إلى أسفل (استدارتها أو كاستها) مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف ، وهكذا . . .

ولكل حرف من حروف العربية هندسته الخاصة، والحروف كلها بأجزائها وكلياتها مردودة إلى نسبة ثابتة، عرفت بالنسبة

الفاضلة ، فعرض الألف فى الكتابة المقومة بالنسبة إلى طولها ١ : ٨ وتظل هذه النسبة مرعية مهما تفاوتت المساحات التى يكتب فيها — وقد دل عدم التزام هذه النسبة فى الكتابة على كثير من الفساد ، فقد وجدت الألف التى طولها بالنسبة لعرضها ١٢ : ١ هزيلة مفرطة فى الطول ، كما وجدت الألف التى طولها بالنسبة إلى عرضها ٤ : ١ قميئة قبيحة .

ومهما قيل فى شأن حروف الأمم الأخرى من أنها تجرى بدورها على أساس هندسى أو جمالى معين ، فليست كلها ببالغة ما بلغته الكتابة العربية فى هذا المضمار . ولا نظن أمة من الأمم قد أولت الكتابة هذه العناية فجعلت منها فنا دقيقاً مفصل القواعد ثابت الأسس مقرر الضوابط مثل أمة العرب ، ولا نخال خطاً أفاض نقاد الفنون فى وصفه وتقرير هيئته وتشريح أجزائه ، وإبراز معاييره الجمالية ، وإثبات خصائصه ، وما ينبغى أن يكون عليه ، مثل الخط العربى .

وتمتاز الحروف العربية ببساطة صورها إذا قيست بحروف الأمم الأخرى ، ولا غرو فهى ليست أصلا إلا خطوطاً مستقيمة وأجزاء من الدائرة على نحو ما فصلها ابن عبد السلام . ومن مزايا

الحروف العربية قلة عدد صورها الناشئ من تشابه الحروف فالباء والتاء والثاء بصورة واحدة، والجيم والحاء والخاء كذلك، والصاد والضاد، والطاء والظاء، والعين والغين، والفاء والقاف . . .

وفى الكتابة العربية خاصية أخرى، تلك أنها بطبيعة كونها ترسم لإحدى اللغات السامية تكتفى بالحروف الساكنة فى رسم الكلمات، دون الحاجة إلى « حروف حركة » تبتدع لتلافى اجتماع الساكنين، ولكن اللغات السامية تغلبت على هذه الصعوبة بابتكار علامات إعرابية رمزت لهذه الحركات دون أن تصبح أحرفاً مقحمة فى صلب الكلمات . وقد نشأ عن ذلك « اختزال » يعتبره البعض من محاسن الكتابة العربية لولا ما يقع فيه المبتدئون والجهال بقواعد اللغة من أخطاء عند ما يقرأون نصوصاً غير مشكولة .

ومن ثم نفهم أن هذه الصعوبة لم تكن صعوبة ذات بال فى الكتابة العربية عند ما اتخذها العرب الحجازيون ليسجلوا بها لغتهم العربية، فهؤلاء لم يكن يعجزهم أن يقرأوا الكلمات صحيحة على خلوها من الحركات الإعرابية بل ومن النقط أيضا .

والمعروف أنه لم تبد الحاجة إلى « شكل » الكتابة « ونقطها » إلا بعد تمام اختلاط العرب بالأعاجم، والمعروف كذلك أن

الشكل لا يلزم كثيراً إلا للمبتدئين وغير المتمكنين من قواعد العربية : وعلى هذا لا تكون تعرية الكلمات من الشكل عيباً إلا إذا راعينا جانب المبتدئين ذلك، لأن طبيعة العربية، كطبيعة كل لغة قديمة مقيدة بأصول وضوابط لامعدى من حذقها ، فليست الصعوبة إذن صعوبة فى رسم الكلمات ، بقدر ما هى صعوبة ناشئة من جهل النحو والصرف ، والعلم بهما يمكن من صحة القراءة ويعوض عن انعدام (حروف الحركة) أو ما يقوم مقامها من رموز .

ومن خصائص اللغات السامية أن « الحركة » ليست فيها أصلا مستقلا عن الحروف الساكنة ، وإنما هى فى الواقع جزء منها متمم لها ، فهى لا وجود لها فى «المصدر» أصل المشتقات ، وقد يكون من مزايا العربية أن المصدر يستحيل فيها ببعض الحروف الإضافية أو « بالحركة » ، حرفاً كانت أو رمزاً إلى حالات ومعان لا عداد لها ، وهذا غنى فى اللغة يعتد به أصحابها ، واختزال فى الكتابة وانضغاط لا نظير لها فى اللغات الأخرى ، وبهذا يكون من مزايا الكتابة العربية فى نظر البعض أنها لا تشغل حيزاً كبيراً — الأمر الذى يساعد على سرعة التأدية والاقتصاد فى المادة

المستخدمة (صبغاً كانت أو ورقاً أو أداة كتابة) .

ومما يعاب على الكتابة العربية منذ القدم كثرة « شونيزها » وهو نقطاتها وشكلاتها ، قالوا إنها من الأسباب المشوشة للرسم الداعية إلى وقوع لبس يدعو إلى التحريف . وهذه النقطات والشكلات مكروهة من العرب ، أصحاب هذه الكتابة منذ القدم ، فقد روى عن الصحابة أنهم كانوا يكرهون إضافة شيء إلى المصحف ، ولذلك فقد جردوه من كل شيء حتى من « الشكل والنقط » ، وقد رهب العرب فى « النقط » و « الشكل » بقدر ما رغبوا فيهما . أما الترغيب فلما فيهما من البيان والضبط والتقييد ، أما الترهيب فلأنهم رأوا فيهما « إظلاماً » للكتابة كما كانوا يقولون .

وكان كتاب « الديونة » لا يعرجون على النقط والشكل بحال ، أما كتاب « الإنشاء » فمنهم من تحاشاهما خوفاً من مظنة نسبة المكتوب إليه إلى الجهل !

أما إن الشكل والنقط « يظلم » الكتابة العربية ، فأمر يتوقف على مقدار جودة الكتابة ومقدار الملاءمة بين النقطات والشكلات ومواضعها الطبيعية ، فإذا ما وضعت النقطة فى مكانها أبانت وأزالت لبساً وعصمت من وقوع تصحيف ، وإذا اكتفى من

الشكل بالقدر الضروري لسلامة القراءة ، كان « العجم » بمعنى « شكل » الكتابة « ونقصها » داعياً إلى اشراق المعنى فى الأذهان فضلا عن إشراق الكتابة إذا ما خطتها يد قوية مجودة عارفة بأصول الحروف وهندستها وأوضاع نقطاتها وشكلاتها ، وذلك كله ليس بالأمر اليسير

على أن العرب القدماء لم يكونوا يستحسنون الشكل إلا مخافة اللحن فى قراءة المصحف ، وقد كانوا يرون التخفف منه فيما عدا ذلك — ويذهب الذاهبون فى أيامنا إلى أنه إذا أريد الحرص على سلامة اللغة ، وجب أن تشكل الكلمات شكلا تاماً ، وعندئذ لا يكون هناك ما يعاب على الكتابة كوسيلة لأداء الأصوات المسموعة محكمة لا يتطرق إليها الباطل من بين يديها ولا من خلفها — ويعارضهم فى ذلك من يرون فى الشكل بهذه الكثرة المفرطة إظلاماً للكتابة ونقصاً فى مقدرتها الذاتية على التأدية من غير هذه الشكلات

ومما هو جدير بالذكر أن العرب القدامى لم يعترضوا على هذه اللواحق الخطية من (شكل ونقط) إلا من حيث تشكيكها فى مقدرة المكتوب إليه ، وعند ما جودت الكتابة ، واخترعت

الأقلام ، واتخذت الشكلات والنقطات هيئاتها الجمالية ، وتحددت أشكالها وأوضاعها وعرفت مساحاتها وأماكن إنزالها ، غدت هذه جزءاً متمماً لصناعة الخط الجيد ، يعيب مجود الخط ألا يكون عارفاً بها ، قديراً على استخدامها . . .

وقد يعاب على اللغة العربية عجزها عن أداء «المقاطع الحركية» الموجودة فى اللغات الأوربية ، وهى المقاطع الناشئة من إدغام بعض حروف العلة بالبعض الآخر ، كما يعاب على رسم كتابتها قصوره عن هذا الأداء .

ولكن هذا لا يمكن أن يعيب اللغة أو الكتابة العربية — ذلك لأن ادغام حروف العلة ليس من خصائص لغة الضاد ، ولهذا تخلو الكتابة العربية — ومن حقها أن تخلو — من كل مشخص دال على ذلك ، ولا يخفى أنها بدورها قد اختصت بحروف لا مثيل لها فى اللغات الأخرى هى الثاء والحاء والخاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف وكلها مما لا يسهل النطق به فى لغات الأمم الأخرى ، وإن سهل على نحو ما الاصطلاح على رسمه كما فعل مؤتمر المستشرقين فى ١٩٠٨ من تمثيل هذه الحروف فى الكتابات اللاتينية بطريقة وضعها لذلك يستخدمها

المستشرقون فى كتاباتهم عند ما يريدون تصويب النطق بالنصوص العربية التى يضمنونها لغاتهم الخاصة .

والكتابة العربية فى نظر المتحمسين أداة موفية لجميع الأغراض النطقية التى تتطلبها منها اللغة العربية التى لم تخلق الكتابة العربية إلا لتأديتها — فهى عندهم بلا شك وسيلة كاملة للتعبير عن منطوق الحروف فى لغة الضاد ساكنها ومتحركها ، على النحو الذى اعتادته أفواه المتكلمين بالعربية وحلوقهم منذ تكلمها المتكلمون فى شبه الجزيرة العربية .

وفى الوسع أن تبتكر العربية من الحروف أو الرموز ما تسد به هذا العجز الذى ليس فى طبيعتها أصلا ، على نحو ما ابتكرت الباء الأعجمية والفاء الأعجمية وأشاعتهما فى النطق والكتابة منذ زمان بعيد ، كما هو فى الوسع أيضاً بقليل من الابتكار أن تصبح حروف المد العربية وهى الألف والواو والياء قادرة على تمثيل حروف المد الأعجمية ، الابتكار الذى يجعل الرسم العربى صالحاً لتضمين العبارات العربية تعريباً دقيق النطق لبعض الألفاظ الأجنبية .

ومن صعوبات الرسم العربى رسم الألف ياء أحياناً كما فى

عيسى وموسى ، والتاء هاء مربوطة كما فى كتابة ،وليس من العسير العدول عن ذلك متى اتفق على هذا العدول. ومن صعوباته كذلك اسقاط حرف المد فى رسم عدد من الكلمات كما فى اسحق وداود والنبين (النبيين) وفى هذا ، وهؤلاء ، ولكن —ولو انعقد الاجماع على إثباتها لانتفت هذه الصعوبة على التو.

وليس بعسير على أهل العربية أن يجعلوا كتابتهم ذات صور حاسمة تمحى فيهاالالتباسات، بشيء من الابتكار ،وذلك يجعل رسم الكلمة متفقاً مع منطوقها ، فلا تبقى إلا صعوبة الأعراب ،ولتلافى هذه الصعوبة الأعرابية يتحتم تماماً تشكيل أواخر الكلمات وضبط بعض حروفها لتأتى صحيحة النطق جارية على قواعد الأعراب .

و هناك من أنصار المحافظة من يعتقد أن لكل لغة (لازمة) ولكل حرف (سمة) ولا معدى عن هذه اللوازم وتلك السمات ، ولولا ذلك لما كانت اللغة لغة ، والكتابة كتابة،فليس التيسير الشديد إلا علامة البداوة وعدم الانضباط ، وهو ما تتنزه عنه كافة اللغات العريقة ، واللغة فى كل أمة وفى كل الأعمار ليست إلا اكتساباً، وحذقها لفظاً وخطاً أمر يتطلب من صاحبه توفراً ودراسة على كل حال .

وتتلاشى صعوبة الرسم جملة إذا ما اتفق على أن يكون هناك من بين أنواع الأقلام العربية المتعارفة الآن « رسم واحد دارج » يتعلمه المبتدئون، ويتداوله الحاذقون فى كتابتهم، ويستخدمه الطابعون فى طباعة الكتب ، وأصلح أنواع الأقلام جميعاً لهذا الغرض خط النسخ بقواعده المقررة — أما بقية أنواع الخطوط فلتبق على ما هى عليه من الأجادة والتنوع الجمالى لتكون ترفاً خطيا يحذقه من يشاء وينصرف عنه من يشاء . ولنا فى الخطوط اللاتينية أسوة ، ففيها النوع الدارج المتواضع عليه، والذى يحذقه قراءة ورسماً أوساط الناس ، وفيها الأنواع الزخرفية البالغة منتهى التعقيد وعلى رأسها « الخط القوطى » الذى آثره الألمان لكتابة لغتهم الألمانية ، رغم عسره واستغلاقه على القارئين .

أما مايقال من تشابه حروف الباء والتاء والثاء والياء والنون والصاد والضاد والعين والغين عند ما تكون فى ابتداء الكلمة ، وفى وسطها ، من أنها تجهد النظر وتكدح الذهن نوعاً ما للتفريق بينها ، فأمر صحيح فى حد ذاته ، ولكن التيسير المرجو للكتابة العربية والذى هو الآن محل تفكير المعنيين بهذه المسألة ، كفيل بأزالة هذه الصعوبة. ومن طبيعة الحاجة أن تفتق الحيلة . وليست المخالفة بين

هذه الحروف بالأمر المستعصى على المبتكرين .

وليست مسألة تيسير الكتابة العربية هينة تقبلها النفس بلا غضاضة أو إحجام ، فقد غدت الكتابة العربية بصعوباتها القائمة تراثاً يصعب النزول عنه ، والناس يعتقدون أن التيسير فيها نوع من التفريط ومخالفة الأصول والتقاليد .

وقد دارت فى المجمع اللغوى فى القاهرة مناقشات حول هذا التيسير أثارها اقتراح المرحوم عبد العزيز فهمى (باشا) اتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العربية

وكشفت هذه المناقشات عن كثير مما ينسب إلى الكتابة العربية من عيوب ، كما أبانت عن كثير من محاسنها فى الوقت ذاته ، وأبلى فريق المحافظة بلاء حسناً ، وعددوا الأخطار التى تحيق بالعربية إذا ما عدل عن رسمها الأول ، ولكن المناقشة أدت فى النهاية إلى أن يصدر المجمع قراره الذى يقضى بإذاعة نصوص كل ما دار فى موتمره ١٩٤٤ خاصاً بالكتابة وما اتخذ فى ذلك من قرارات ، فطبعت وأذيعت على الناطقين بالضاد ليتقدم من يتقدم بمشروع يحقق فكرة التيسير المنشودة ينظره المجمع فى دورته الجديدة ١٩٤٧ .